مقابلة ادبية مع الطيّب صالح

تفاصيل في عالم الرواية

اجرى المقابلة : ماجد السامرائي

مصادفة إلتقينا في المغرب . وأين ؟ في « أصيلة » ، أثناء انعقاد مهرجانها الفني . واتفقنا أن نلتقي في اليوم التالي في « طنجة » ، حيث كان .

وكما لروايات الطيب صالح لونها الخاص ، كذلك وجدت « طنجة » . . كان الجوّ مساعداً على الكلام ، والحديث . غير أن ارتباطات الطيب صالح العائلية لم تتح لنا أن نمضي أكثر في هذا الحديث الذي سجلته معه ضحى يوم ٢٦/٨/ ١٩٨٠ . .

ـ بدءاً ، أودّ التعرف على بدايتك . . على أي نحو تكوّن « هاجس الكتابة » عندك ، وكيف تبلور ؟

ـ يبدو لي ان من الصعب أن يضع الانسان يده على نقطة محددة في حياته ليقول إنه بدأ منها كاتباً ، أو قرر أن يكون كاتباً . .

أذكر ، وأنا بعد تلميذ في المدرسة الثانوية ، أنني كنتُ جيداً في اللغتين ، العربية والانكليزية . . وكنا يومها نصدر « صحف الحائط » التي كنتُ أساهم فيها . لكنني لم أكن من نجوم الكتابة في المدرسة الثانوية . .

كان عندي حب للأدب واللغة . . وربما هروباً من أن يصبح الانسان أديباً حاولتُ أن أكون عالماً . . لكنني فشلت ، لسوء الحظ ، لأنني دخلتُ كلية العلوم في جامعة الخرطوم ، وتخرجتُ فيها ، وأحسب أنني نسيت اليوم كل ما تعلمته فيها من العلوم !

في واقع الأمر : بدأتُ الكتابة في لندن . أي أنني بدأتُ الكتابة من أجل أن أكون كاتباً ، وأذكر أنني كتبتُ قصة اسمها « نخلة على الجدول » ونُشرت وأنا في لندن . ثم في عام ١٩٦٠ كنت أمضي العطلة إلى جانب أهلي في السودان (فأنا من بلد يسمى « الدبّة » في الشمال الأوسط من السودان) . . وكان الوقت هو شهر رمضان . . وأذكر انني كنتُ أكتب في قصة « دومة ود حامد » ما بين السحور والصبح . . وعندما انتهيتُ منها نشرها لي صديقي دنيس جونسن ـ ديفز في المجلة التي كان يصدرها مع صديق مصري آخر في لندن « ادغار فرج » . . هي مجلة « أصوات » . وقد أحبّ الناس هذه القصة .

في هذه الفترة من حياتي كنت أنشر في مجلات غير معروفة ، وسرعان ما كانت تموت . فقد نشرت في مجلة « أدب » التي أصدرها يوسف الخال في بيروت . . كما نشرتُ في « أصوات » .

لكن ، حقيقةً ، ليس لديَّ الاحساس ، حتى الآن ، بأنني كاتب . لا أدري كيف يُحسُّ الانسان ، إذا كان كاتباً ، أن كل تكوينه ومصيره مرتبط بهذا الشيء . يبدو لي أن علاقتي بالكتابة ـ مع أنها مهمة بالنسبة لي ـ علاقة ليس فيها الكثير من الحرّية . . أي أنها ليست موضوع حياة أو موت . .

ـ إنما . . .

ـ أحاول الآن أن أُفكر بأسباب مثل هذا الاحساس . يبدو لي أن الناس تعتبر بعض ما كتبته جيداً . . لكن . . لماذا لا يُحسُّ الإنسان أنه كاتب ، فيغيّر نمط حياته ويتفرّغ للكتابة ؟ لا أعرف سبباً . .

ـ أما الآن ، ألا تحاول تفسير هذا الاحساس ؟

ـ ربما البيئة . . فعلى أيام صبانا في السودان ، حين كنا طلاباً في المدارس كنّا جميعاً قد جئنا من بيئات متشابهة في المقاييس الاقتصادية ، مع اختلافات بسيطة . كنا جميعاً من الريف ، ننحدر من عوائل تمتهن الزراعة . وكان مهماً عندما ، أولا ، أن نساهم في التنمية . كان مهماً أن يكون الواحد منا طبيباً ، أو خبيراً زراعياً ، أو اقتصادياً ، أو معلماً ، أو في الادارة . . لأن السودان كان يمرّ بعملية تحوّل : عملية تسليم السلطة من الانكليز إلى السودانيين . فكان كل الطلبة النابهين يذهبون إلى كليات العلوم . . . أما أن يكون الانسان كاتباً ، فقد كان صعباً على المجتمع أن يتقبل ذلك .

طبعاً نحن نعرف الآن أن الفكر مهم جداً في عملية التحوّل . أما في ذلك الزمن فلم نكن جميعنا ندرك هذا . وربما كان هذا هو السبب في عدم استمراري في دراسة الأدب ، فدرستُ العلوم في الخرطوم ، ثم درستُ العلوم السياسية في جامعة لندن . وقد كانت هذه التجربة مفيدة لي ككاتب ، حيث وسّعت دائرة اهتمامي ، ولم أحصر نفسي في موضوع الأدب المطلق ، والفكر المطلق .

ـ لا أدري ما إذا كنت ، في تلك المرحلة المبكرة من حياتك ، تشارك محيطك مثل هذا الرأي عن الأديب والأدب ؟

ـ نحن جميعاً كنّا مختلفين مع مجتمعنا في هذا المجال . . فلقد اتخذت حياتي ، فيما بعد ، شكلاً لم أواجهه بالرفض . . لكنني عملتُ أشياء فيها طابع الابتعاد عن الخط التقليدي للمجتمع . فقد تغربت ، ثم تزوّجتُ من انكليزية (وفي زمننا كان الزواج من إبنة العم هو المثل الأعلى) . كنّا نحسّ بأننا نريد أشياء . . كنا جيلاً متميزاً بعطف شديد على مجتمعنا ، على العكس من الأجيال الشابة اليوم . كنّا نفهم تماماً لماذا كان أهلنا يفكرون بهذا الشكل . وأعتقد أن هذا واضح في ما أكتب الآن . إنني دائماً أنظر إلى العالم من أكثر من زاوية ، فأرى له عدّة وجوه . لم نكن نريد أن نسبّب لأهلنا أيّ شيء يؤثّر فيهم سلبياً . كنّا نريد أن ننضوي في الحياة كما هي . . وكان هذا هو مطلبنا . ولذلك كان مهماً أن يعمل الانسان شيئاً يبدو مفيداً بطريقة محسوسة وواقعية وعملية . أما قضية أن يكون الانسان مفكراً ويساعد في عملية التغيير على مدى طويل ـ وقد يحدث أو لا يحدث ـ فقد

كان يبدو صعباً بعض الشيء .

عند الجيل الذي سبقنا قليلاً ـ جيل المرحوم محمد أحمد محجوب الذي أصبح رئيساً للوزراء في السودان ، وكان شاعراً كبيراً ـ فقد جمع ما بين الفكر وبين المهن الأخرى (الطبابة أو المحاماة) . . ثم أن أغلبهم تسلّم مناصب مرموقة في البلد . . . وقد خفّفت هذا من النظرة العامة إلى الأدب والكتابة . .

أرجو هنا أن لا يفهم من هذا بأنّ السودان ، ككل ، لا يقدر الفكر . . . إنها مجرد ظروف موقتة . فالسودان معروف بحبّه للعلم . . معروف بأنّ الناس كانوا يهاجرون من « سنّا » في جنوب الخرطوم (يوم كانت عاصمة السودان في ما يعرف بـ « السلطنة الزرقاء ») . . كان طلاب العلم يهاجرون إلى فاس ، وإلى شنقيط ، وإلى تونس ، ومصر ، وبغداد . . ويأتي العلماء من هذه البلاد على قوافل محمّلة بالكتب . فتراث العلم وحب العلم موجود عندنا . لكننا مررنا بفترة (من الحرب العالمية الأولى حتى نيل السودان استقلاله) كان المشكل فيها مشكلاً اقتصادياً واضحاً للعيان . . وكان المطلب والهدف الأول هو « التغيير المادي » . . وهذا ما يفسر ، إلى حدّ كبير ـ في رأيي ـ كون كثير من شباب السودان اللامعين أكاديمياً . قد اختاروا الشيوعية (مثل المرحوم عبد الخالق محجوب ، الذي كان من ألمع الشباب في زمنه ، وكان يسبقني بأربع سنوات في الدراسة . . وكان المفروض أن يكون من الأساتذة الكبار في اللغة أو التاريخ أو الاقتصاد) . . لقد كان اختيارهم هذا محكوماً بنوع من المثالية ، لأنهم كانوا يريدون تغيير المجتمع بسرعة .

ـ إنطلاقاً من كل هذا ، ماذا يعني عندك أن يكون الانسان كاتباً ، أو مبدعاً ؟

ـ الكاتب يدخل في ميدان خلقي . . لأنّ أيّ إنسان يختار أن يعبّر للناس عن أفكاره ، وهذه الأفكار تعني ، ضمنياً ، إما نقداً للواقع ، أو رغبة في تكوين واقع جديد ، فإنّ هذا يفرض مسؤولية ضخمة على الكاتب ، لأنه يضعه في وضع خلقي أمام المجتمع ، لأنّ الناس يقرأون ما يكتب ، ويسمعون كلماته ، ثم ينظرون إليه . فمن المشاكل الكبيرة ، في رأيي ، بالنسبة للمبدعين العرب ، وبالنسبة لنظرة العالم العربي نفسه لقضية الابداع ، أن الناس يطالبون الكاتب دائماً أن يفعل ما يقول . وبطبيعة الحال فنحن جميعاً بشر . وأعتقد أنه لا يوجد إنسان على وجه البسيطة يفعل ما يقول مئة بالمئة . لكن ، على أية حال ، لا بدّ من المحاولة . . وعلى المبدع أن يحس بأنه في وضع فريد . . فهو ليس شخصاً عادياً ، ولا يستطيع أن يسلك سلوكاً عادياً ، أو أن يعترف بوجوه النقص في نفسه .

هذا من الناحية الشخصية . . أما من ناحية تقبّل المجتمع نفسه للعملية الابداعية ، فالعالم العربي متشابه إلى حدّ كبير . . متشابه في نظرته إلى العملية الابداعية . كل قطر يحبّ أن يكون له شعراء ورسامون وكتّاب ، والدولة تفرح بهذا ، وتعتبرهم نوعاً من « الصورة » للبلد . لكن هذه الدول ، إلى حدّ كبير ، لا تفعل أكثر من ذلك . فإذا أصبح الانسان كاتباً دخل في هذا الوضع ، وأصبح جزءاً من مكوّنات الأشياء التي تفخر بها الدولة . .

وكمغزى لكل هذا ، المفروض أن يساعد ، في نهاية الأمر ، على إحداث تغيير . . وهذا التغيير لا يلزم أن يكون عنيفاً ، أو ثورياً . . لكن المفروض أن تصبّ حصيلة كل هذا الفكر في قنوات تصل بهم إلى أن تضع أيديهم على مفاتيح التغيير . فإذا كتب كاتب ما رواية تُحس أن لها مغزى . . تشعر بأثرها . . وليس ضرورياً أن يكون هذا الأثر في الفكر الاقتصادي أو التاريخي .

إلى حد كبير ، يبدو لي أن القنوات ليست مفتوحة على أوسع نطاق . .

ـ بل هي ضعيفة التأثير في كثير من الحالات ، بحيث يبدو أحياناً أن التأثيرات الميثولوجية الدينية ، أو الغيبية أعمق وأشدّ قوة وتأثيراً من قوة « الفكر الجديد » في مجتمعنا العربي . حتى لتبدو الكثير من مصادر الثقافة التي نعنيها ليست أكثر من « شيء مظهري » .

ـ أعتقد أنها كذلك . ولكن ليس من الضروري إطلاقاً أن يكون هناك خلاف بين الاتجاهات التي أسميتها « الميثولوجية الدينية » ، أو « الاتجاهات الموروثة » وبين الفكر الحديث . . بل ان من أهم ما يفعله الفكر الحديث ، في واقع الأمر ، هو أنه يعيد النظر ويفتح العيون على أشياء قيّمة في الماضي . أحياناً يموت الماضي نفسه لأنه أصبح مألوفاً إلى حدود بعيدة . . والناس تمارس طقوساً دون أن تفهم مدلول هذه الممارسات . هناك افتراضات عند بعض أولي الأمر بأن ثمة تناقضاً جذرياً بين الفكر وبين السياسة مثلاً . . أو بين الفكر والسلطة . ليس ضرورياً أن يكون هذا حاصلاً فعلاً . نحن لا نريد أن نعتقد بأن المطلوب هو إحداث زعزعة سلطان أيّ إنسان ، أو إضعاف نفوذ أي شخص . . ما يهمنا هو فتح الحوار مع الجميع . .

أنا شخصياً ، في ما كتبته أخيراً ، وصلت إلى نتائج : ربما يكون ما نطلبه من تغيير سريع وعنيف صعباً . لكننا نريد أن يكون هناك إحتمال « تغيير منغم » تصل فيه الأفكار وتؤثّر دون أن تكون هناك هذه السدود التي تقام أمام الفكر وتكوّن الانفجارات المعروفة ، والتي أصبحت الآن محلّة في العالم العربي كلّه .

ـ وأنت ، في ما كتبت ، تناولت هذا التناقض ، وطرحت هاتين الصورتين . . حتى أن قارئك يجدك داخلاً في جدلية : بين الأشخاص أنفسهم ، أو بينهم وبين الواقع . . أو حتى بين الواقع ونفسه في صورتيه . .

ترى ، إلى ماذا تسعى من خلال هذا كله ؟ وماذا تريد أن تقول في النهاية ؟

ـ لا أريد أن أزعم أن عندي نظرية مكتملة أحاول أن أثبتها ، لأنني ، على أي حال ، لستُ رجل سياسة ، ولا مؤرخاً ، ولا رجل اقتصاد . . ولكن . .

ـ ولكنك تملك الأداة الفنية ، وللفن دور مؤثر في كل هذه المسارات ، الفكرية والواقعية . .

ـ لنفترض أنني أمتلك القدرة على الاستقصاء (وفي واقع الأمر أنا أُحاول النظر إلى العمل الروائي كمؤرخ . . أُحاول أن أُعطي ، ما أكتب

الموضوعية المتاحة للمؤرخ . إنك ترى ما بين يديك من مواد وأدلة ، ومنها تحاول الوصول إلى بعض النتائج) .. ما أريده أنا ، وما يريده أناس كثيرون مثلي ممن يكتبون ، ومن الشعراء والرسامين واضح الآن . . ويُخيّل إليّ أن هذا الاتجاه أصبحت له مظاهر واضحة للعيان . فنحن نريد أن نجد الرابطة بين فوضى حياتنا المعاصرة وبين إمتداد تاريخنا . سبب هذه الفوضى ، برأيي ، هي ، أولا ، أن أغلب الأفكار المطروحة للجدل أفكار مشوّهة . . أفكار نتجت عن إتصالنا بالعالم الغربي الاستعماري . وهناك الكثير من الأشياء التي أخذناها ظناً منّا أنها تقدمية ، وهي ليست كذلك . الكثير من الأشياء التي يظهر أنها رجعية ربما تكون فيها ديناميكية تقدّمية لو أحسنّا استعمالها . هناك جدل وخلاف طويل عريض بين افتراضات لم نمحصها على الاطلاق . . وفي اليوم الذي نربط فيه بين ماضينا وحاضرنا ، يخيّل إليّ أن المياه ـ كما يقول الاستاذ المهدي بن بركة ـ ستعود إلى مجاريها . . تُفتح القنوات وتُترك المياه تجري ، لأنّ لكل منطقة في العالم نغماً معيناً ، يختلف عن أنغام المناطق الأخرى .

المشكلة عندنا هي أننا كمن يحاول أن يعزف « باخ » مثلاً على « الكمان » أو « القانون » .

علينا أن نرى الهنات التي نعاني منها ، والأنغام الخاصة بنا ، لكي تتجانس الأمور ، ونتخلص من هذا التبديد الذي لا حصر له للطاقة في أشياء سلبية . كل هذا يجب أن يحوّل إلى قنوات إيجابية . .

هذه هي المشكلة الكبرى التي يحاول كل واحد منا أن يلقي عليها ضوءاً صغيراً ، هنا وهناك .

ـ هذا الذي تقوله يثير مسألة تتصل بك شخصياً . فأنت نشأت في مجتمع كانت هذه الظاهرة موجودة فيه ومكرّسة ، على نحو أو آخر . ثم ذهبت إلى الغرب لتلقّي العلوم ، وربما لتتعلم من الغرب وحياة الغرب . فكيف واجهت هذه المشكلة ؟

ـ في البدء كنّا جميعاً نعيش ما أسميه « فترة الاندهاش » حين نقول « الغرب » . نحن حولنا الغرب ـ كشيء مطلق ـ إلى غول مخيف . . بينما هو مكوّن من أفراد وأشياء . والمشكلة هي أن الأفراد والأشياء الجزئيات فيها جميلة ـ مثل « إبليس » في شعر أبي نواس . . فهو ، كما تعلم ، ليس شخصية مخيفة وسيئة بشكل واضح ، وإلاّ كان يمكن أن تكون المشكلة بسيطة . « إبليس » شخصية ظريفة . . وكذلك الغرب . . الجزئيات فيه جميلة ولطيفة .

نحن تعلمنا على أيدي أساتذة كانوا أناساً طيبين ، ومنهم مَنْ كان ممتازاً . . لكنهم كانوا يمثلون شيئاً سيئاً . . الفكرة التي كانت تقف وراءهم سيئة . . أما هم شخصياً فكانوا طيبين . . استفدنا منهم علوماً . . استفدنا منهم تكنولوجيا . . بلادهم متطورة ومتقدمة على بلادنا . . والحياة أظرف وألطف . . حتى نساؤهم ، بفعل الصحة والعافية ، أجمل . كنّا نعيش في مجتمع مغلق فوجدنا أنفسنا في حال يمكننا فيها أن نجالس فتاة ونتحدث معها . كل هذه أشياء جميلة . وفي رأيي أن من ضمن الأخطاء التي يرتكبها بعض المفكرين والكتّاب في مناقشة الشرّ الذي يمثله الاستعمار هو أنهم يهملون كون أغلب جزئيات هذا الشرّ جذاباً . وهذه هي الصعوبة . فنحن كنّا قد انسقنا أولا وراء هذه الجاذبية . . لكننا كنا ، باستمرار ، نقارن بين هذا . كان في نفوسنا هاجس خفيّ يذكرنا بأن هذا ليس لنا أولا . . فهؤلاء الناس اللطيفون الذين نقابلهم ونتحدث معهم يمثلون ، في نهاية الأمر ، شراً بالنسبة لنا .

ثم بدأنا نكتشف جذورنا . وأعتقد أن من بين الأشياء المهمة جداً في بُعدنا عن مجتمعنا ، بالنسبة لهذه الأجيال ، أننا بدأنا عن طريق الغربة ، الروحية والعقلية ، (وقد أشرتُ إلى هذا في « موسم الهجرة إلى الشمال ») . . بدأنا نكتشف جذورنا ، وبدأنا بمرحلة صعبة من العودة إلى شيء فقدناه . . هذا الشيء قد لا يكون جذاباً . . وهذه أيضاً مشكلة ثانية : فنحن نفترض أحياناً أن الشيء الذي سوف نعود إليه أكثر جاذبية . لا . . فهذا الشيء لا يلزم أن يكون جذاباً . . كل ما يميزه هو أنه ملكنا نحن . وهذه هي القضية كلها .

ـ ومن هنا كانت عودتك إلى السودان حين أردت أن تكتب ؟ فقد عدت إليه كمناخ ، نفسي وروحي . فهل كانت حياتك في الغرب ، وعلاقتك به على هذا النحو الذي تتحدث به عنه هي السبب في هذه « العودة » إلى الجذور ؟

ـ كان الحافز خليطاً من أشياء : الرغبة في التعبير . الرغبة في الاشتراك في الحوار الدائر في المنطقة العربية . . والمنطقة العربية مكان مميّز على وجه الأرض ، كما أرى . فأنا أعتقد أن الانسان العربي إنسان مميّز بشكل ما ، بكل نقائصه وحسناته . . إنسان جدير بأن ينتمي إليه الانسان . لو كان الواحد منا إنكليزياً أو فرنسياً لما كانت لديه مثل هذه الرغبة ، لأن تلك المجتمعات قد حلّت الكثير من مشاكلها . . ومشاكلها الآن هي مشاكل الرفاهية وليست مشاكل الندرة . لكن أن يكون الانسان جزءاً من بيئة فيها الكثير من الأشياء المحببة ، يريد أن يساهم فيها بشكل ما ، فذلك لأن الانسان ليس صانعاً ، ولا مزارعاً ، ولا عاملاً ، وليست لديه أية فائدة يقدمها . . فوجد عنده قلماً ، وأصبح يسهم بهذه الوسيلة .

بعد هذا تأتي التجارب وحصيلة الأفكار والمشاهدات والبيئات التي درسها الانسان وعايشها .

ـ لكن السؤال يبقى مطروحاً حول دوافع الكتابة بالصيغة التي عبّرت بها . فهل أردت أن تقدم « الصورة البديل » ، أم انك أردت « محاورة » هذه الصورة البديل لتصل بها إلى مستوى الحياة والتفكير الذي عرفت ، والذي تريد ؟

ـ في رواية « عرس الزين » أردت ، مثلاً ، أن أحتفي ببيئة عرفتها وأحببتها ، وأنا منتمٍ إليها ، وما أزال أنتمي إليها بخيالي ـ ولو أني قد ابتعدت عنها جسدياً ـ أردت أن أحتفي بهذه البيئة . . أن أقول . . وأن أضع على الورق إحتفائي بهذه البيئة وحبي لها . .

هذا أولا . . وثانياً ، أردتُ ، كما قلت ، وبحسب تعبيرك ، أن أتحاور مع « البديل » دون أن أزعم بأنني قدّمتُ بديلاً ـ فهذا زعم كبير ـ لكن هناك إحساسات بما هو ممكن . . بما هو محتمل التحقيق بسهولة . وإذا كان هناك من نَظَرَ فوجدَ مقارنة أو تضاداً بين هذه البيئة وبين ما هو موجود في الواقع ،

وما يحلم به . . فأنا سعيد بهذا . إذا كان هناك من قرأها وشعر بلذّة ، واستلطف بعض الشخصيات ، فأنا سعيد بهذا أيضاً . .

ـ أنت دائماً تقدّم صورتين أو أكثر لتلك الحياة . دائماً تزجّ هذه الصور والشخصيات في أزمات وصراعات . تقدم الشرق والغرب . . التقدم والتخلف . . الجنس والتباين في الموقف منه والنظر إليه . فهل لي أن أسأل عن « الأساس الفكري » المفترض لهذه الجدلية التي تقيمها باستمرار في رواياتك ؟

ـ أولا ، أنا لا أعرف حقيقة مطلقة أستطيع أن أدعو الناس إليها . بعض الناس ـ وهم في رأيي مخطئون ـ يقفون وينادون بحقيقة يظنون أنفسهم قد اكتشفوها . . وهي حقيقة مطلقة لا توجد حقيقة غيرها . هؤلاء الناس هم المتزمّتون . وأنا لا أكره في حياتي شيئاً كالتزمت . . لأنّ أي واقع له جوانب كثيرة . ثم ان الواقع نفسه يصعب تحديده . حين تسمع من يقول لك : « أنا أكتب من الواقع » فهو ، كما أعتقد ، لا يعرف تماماً ما يقول . . فهل هو يعني الواقع الفلسفي ، أم الواقع الاقتصادي ، أم التاريخي ؟ هل هو يعرف واقع نفسه في اللحظة التي يتحدث فيها ؟ كل إنسان يقول بوجود حقيقة لديه ولا حقيقة غيرها هو إنسان متزمت . وأعتقد أن من المشاكل في الحوار السياسي في العالم العربي أننا نجد أنفسنا أمام مجموعة من الناس كل واحد فيها يزعم أنه اكتشف الحل . بينما الحلّ معقد وطويل ، وليس مقصوراً على واحد بذاته . . إنما كل واحد له مساهمته فيه .

يخيّل إليّ أننا لو عرفنا هذه الحقيقة فسنوفر على أنفسنا الكثير من المشاكل . . الكثير من الطاقة المهدرة والوقت الضائع . لكنّ ، هناك تصارع عقائدي رهيب ، لأن الناس متزمّتون .

أنا أقدّم صوراً متناقضة لأنني أنظر من زوايا كثيرة للوضع المحدد ، وحتى للشخصية الواحدة . . أترك الناس أحراراً في التقرير . ثم انني أريد أن أترك الحرية للناس لكي يساهموا . . فالقارىء مهم . . وفي عملية الابداع ينبغي أن يقوم القارىء بدور مهم ، لأن تصوراته وخيالاته وافتراضاته مهمة . .

مرات يأتيني مَنْ يقول لي شيئاً عن رواية من رواياتي لم أكن قد فكرتُ به من قبل . . فهو يلتفت إلى نقاط لم أكن قد إلتفت إليها . ساعتها اكتشف أن القارىء كان أكثر مني فهماً للعمل ، أنا كاتبه .

لماذا نتحاور بهذه اللهجة المحدودة الحاسمة ؟ إن الفكرة فكرة واحدة تطغى على عدد من الأفكار . . وأنا أؤمن بتعدّد الفِكَر . يمكن للانسان الواحد أن يعتقد بعدد من الأفكار المتناقضة ، ويربط بينها . . هذه الرابطة بين المتناقضات هي المفتاح ، لأنّ العالم العربي يعيش مشكلات صعبة : كيف نوحّده ؟ فهو عالم متنوع ومتعدّ . . كيف نوحّده إذا لم نؤمن باطار ينتظم عدداً من الأشياء التي تبدو متناقضة ؟ لا بدّ من إيجاد رابطة بينها .

ـ ومن هنا ما تعمد إليه في رواياتك حين تترك نهاياتها مفتوحة . هل تعتمد هذا الأسلوب لتضمّنه دعوتك للقارىء إلى الاسهام في تحديد المسار ؟

ـ هذا صحيح جداً ، لأن القارىء ، في نهاية الأمر ، هو الذي سيحدد المسار ، وليس الكاتب هو الذي يسير ويتابع كل فكرة من أفكاره ويتأكد بأنها قد نُفّذت . هناك مجموعة من البشر كل واحد منهم له وجهة نظر ، وله مبررات من حياته ومن علاقته بالكون ، فيقول ما يريد هو أيضاً . .

الكثير من الناس يفترض كون البعض لا يقرأ ولا يكتب أنهم جهلة . . أميّون . . . وهم ، في هذا ، مخطئون ، لأن القليل من أجدادنا مَنْ كان يقرأ ويكتب ، ولكنهم ، في مفهوم الحياة ، كانوا أناساً متعلمين جداً . لماذا هذا الاحتقار للطرف الآخر ؛ سواء من الكتاب ، أو من المثقفين ، أو من الحكام ؟ لا بدّ من إحترام الطرف الآخر لأنه طرف في القضية ، بل هو الطرف الأكبر في القضية .

ـ على هذا الأساس ، هل تحسب للقارىء حسابه وأنت تقوم بعملية الكتابة ؟

ـ أعتقد ذلك . . وأرجو ذلك ، لأنني ربما أُخطيء أحياناً . . لكن هذا هو ما أريده .

ـ دعنا ندخل في صميم عملية الكتابة . . فأسأل : كيف تكتب ؟

ـ الفكرة تخطر للانسان وتعيش معه . هذا ما يحدث لي : تأتيني فكرة . . ربما أنساها ، وقد تعود إليّ بصورة أخرى . في العادة أنا أسوّف عملية الكتابة ، لأنني لا أزعم حبّ الكتابة . . فحين أكتب أتحوّل إلى مخلوق آخر . . وهذا ما يفسد عليّ عيشي مدّة من الزمن . أنا أفضل أن أعيش حياة عادية . . فإذا ابتعدت عن حياتي العادية وبدأت أكتب فإن نظام حياتي يتغير : يتغيّر الروتين الذي اعتدتُ عليه في حياتي اليومية . علاقة الانسان بالناس تصعب قليلاً . . على أيّة حال ، فأنا أسوّف في عملية الكتابة قدر الامكان . . . ثم تأتي لحظة ، لسبب ما أحسّ معها بالرغبة في الكتابة . وعادةً حين أبدأ الكتابة أستمرّ . الزمن هو المشكلة بالنسبة إليّ . لو جلستُ في مكان مدة شهرين ، وكانت الرغبة في الكتابة قد بدأت عندي ، وشرعت بها فعلاً ، فإنني استمرّ ، في الغالب ، إلى أن ينتهي العمل .

ـ هل تلجأ إلى وسائل مساعدة حين تكتب ، زيادة على ما هي عليه في حياتك العادية : الموسيقى مثلاً ، التدخين ، تناول المنبّهات . . الخ ؟

ـ إنّ المنبّهات تساعد (المنبهات الحلال وليس المنبهات الحرام) ، لأنني أرى أن الكاتب يجب أن يكتب وهو مستيقظ ـ وهذا يسري على جميع المبدعين ـ يجب أن لا يكون تحت تأثير أي مخدّر ، لأنّ هذا ينتج فناً سيئاً . قد يبدو له أنه جميل لأنّ الانسياب فيه أكثر . .

كل ما أفعله أنا أثناء الكتابة هو التدخين . . وأحبّ أن استأنس بأصوات أطفالي من بعيد ، على أن لا يكونوا معي . . أسمع أصواتهم دون أن تشغلني . . أو أسمع موسيقى من نوع ما ، بحيث لا تغرق الذات إغراقاً تاماً . هذا يؤنس وحشتي . .

لكن الكتابة ، في حقيقتها ، عملية موحشة ـ وأنت تعرف ذلك . لا أعتقد أن في الدنيا ما هو أكثر وحشة من العملية الابداعية ، والكتابة منها بالذات ، لأن للرسام وسائل أخرى : هناك الكانفس . . الألوان . . والريشة . . أي أن هناك ميكانيكية يتعامل بها . والنحات كذلك . أما

الكاتب فليس لديه شيء من هذه الآلية إطلاقاً ، كمن يتعامل مع الفراغ .

يراودني باستمرار أثناء الكتابة الشعور بما يسمى هذه الأيام « الاحساس باللا جدوى » . . وأتساءل : ما الفائدة ؟ ثم ماذا ؟ هل سنغيّر الكون ؟ إلى آخر هذه الأسئلة . هذا الاحساس في ذهني دائماً . . وبدأتُ أرى أنه من الأفضل للانسان أن يعمل شيئاً آخر . .

لكن ، من جانب آخر : الكتابة بالنسبة لي هي التغلب على صعوبات نفسية . . . هي عبارة عن تخطٍ لكل هذه العقبات . والعمل يأتي نتيجة لهذا .

ـ وكيف تكون حالتك أثناء الكتابة ، هل تكون هادئة ، أم قلقة ، متوترة ؟

ـ فعلاً أكون قلقاً ومتوتراً . . ودائماً أُحس قبل الشروع بالكتابة بتعب . . باحساس شديد بالارهاق ، كأنّ الدنيا كلّها نزلت على كاهلي . .

لكن هذا يزول في لحظات الكتابة . وأنا أعلم أن الانسان يستسلم أحياناً لهذا الشعور بالارهاق ، فيهرب من الكتابة . أما أنا ، فقد تعودت على هذا . .

ـ كيف كتبت « موسم الهجرة إلى الشمال » ؟ أريد التعرف على الحالة ، والكيفية التي كتبتها بها . حبذا لو نتتبعها بجميع خطواتها .

ـ بدأت بـ « موسم الهجرة . . . » في جنوب فرنسا ، في قرية صغيرة بالقرب من مدينة « كان » تُدعى « لابوكا » ، العام ١٩٦٠ أو ١٩٦٢ (لم أعد أذكر !) . . المهم أنها كانت فترة موحية بالنسبة لي ، لسبب ما ، لا أدري هل هو طقس جنوب فرنسا ، أم هو سبب آخر . أنهيتُ الثلث الأخير من « عرس الزين » ، ثم ، وفي نفس واحد ، لم أتوقف إطلاقاً . . وقد كانت الفكرة ـ فكرة « موسم الهجرة . . . » ـ في ذهني من زمن . . كتبتُ ما يعادل الثلث منها في هذه القرية ، ثم توقفتُ عن الكتابة فيها قرابة أربع سنوات في لندن ، لأنني وصلتُ فيها إلى طريق مسدود . .

خلال فترة التوقف هذه بدأت أقرأ كثيراً عن الفترة التاريخية الواقعة ما بين الحربين (انكلترا . قضايا القتل . المحاكمات . . وأشياء من هذا النوع) . . ثم بعد أربع سنوات كتبت الثلثين الأخيرين منها في حوالي الشهر . فالعملية كلّها ، ككتابة ، لم تأخذ مني أكثر من شهرين . . لكن ما بينهما هناك حوالي الأربع سنوات .

ـ وهل كنت خلال هذه السنوات الأربع تفكر بهذه الرواية ؟ بمجرى أحداثها ؟ بالنهاية التي ستضعها لها ؟

ـ باستمرار . لم يمرّ يوم في حياتي لم أُفكر بها . . وهذا هو العذاب الحقيقي : أن تكون مهووساً بشيء مدة أربع سنوات . كنت أفكر باستمرار ، كيف أحلّ هذه القضية أو تلك . .

مثلاً ، كان في ذهني أن أكتب محاكمة مصطفى سعيد . . أن تكون محاكمة وثائقية . وفعلاً قرأت كثيراً حول الموضوع ، وزرت المحكمة . ولكن فجأة خطر لي أن هذا لا ضرورة له . فكل ما قرأته وما عملته لم آخذ منه إلاّ بضع جمل ، يقولها القاضي أو المحامي ، أو سواهما . لكنني ، باستمرار ، كنت أفكر بالمشكلة الفنية . . فالقضية أصبحت فنية : المادة موجودة ، الشخصيات معروفة ، مجرى الأحداث واضح إلى حدّ ما . . لكن المسألة كانت : كيف تضعها جميعاً في سياق روائي .

ـ وهل حصلت تغييرات جوهرّية في ما خططت له أن يكون ، وبين ما تحقق فعلاً ؟

ـ أعتقد ذلك . لقد حصلت تغييرات جوهرية في شخصيات لم أكن قد فكرتُ بها . مثلاً : شخصية « بنت مجذوب » في القرية ، مع أنها كانت موجودة من أول الرواية ، إلاّ أن الدور الذي لعبته لم أكن قد وضعتُ حسابه . ثم ان الأحداث أخذت مجرىً أكثر عنفاً مما كنت أُريد لها . منظر القتل في القرية ـ وهو ، في رأيي ، أبشع شيء في الرواية ـ الناس يأخذون عليَّ استخدامي بعض الكلمات التي فيها شيء من البذاءة . . وهي بذاءات معروفة على امتداد الأدب العربي . البذاءة الحقيقية في هذه الرواية هو المنظر الذي قتلت فيه حسني بنت محمود وَدْ الريس ، وقتلت نفسها . هذه بشاعة لم أكن قد تخيلتها أبداً . . أن أصل إلى هذه الدرجة من العنف في التعبير .

ـ إذن ، أنت ترسم ، أحياناً ، مسارات معينة لشخصياتك الروائية ، وأثناء عملية الكتابة تجدها قد أفلتت من هذا المسار ، وتمرّدتْ عليك ؟

ـ صحيح . . بل ان من الأشياء الممتعة ، كما يخيّل إليَّ ، في العملية الابداعية على وجه العموم هي هذه الأشياء التي لم تكن في الحسبان . وأظنّ أن الكاتب العاقل عليه أن يستسلم إلى هذا الصوت . أحياناً يكون هناك صوت خفيّ معارض لصوتك العالي . في الغالب ، إذا استسلم المبدع لهذا التيار ، يجد أن العقل الباطن يكون قد حلّ المشكلة . وفي كثير من الأحيان أكون مدركاً أن ما كتبته قد وصل إلى طريق مسدود . . ويكون من الواضح أن عقلك يريد لك أن تسير مساراً آخر ، فأقطعه ، وأحاول من جديد ، لأجد الطريق قد انفتح بطريقة أخرى .

ـ من خلال تجربتك أنت في هذا المجال ، هل تستطيع أن تقول لي : كيف يحصل هذا ؟

ـ هذه قضية طويلة . . قضية الابداع . . عملية الخلق عموماً ، والأشياء الغامضة فيها . وهناك نظريات كثيرة في هذا المجال .

لا أعرف شيئاً عن هذا . . إن فيه جزءاً غامضاً . أحياناً تأتي جمل جاهزة . أحياناً تأتيني الجمل الجاهزة ، وتكون جملاً جميلة . لماذا جاءت هكذا ؟ من أين ؟ شخصية تظهر فجأة على السطح ، من مكان ما . . هل هي ذكريات قديمة ؟ ذكريات جماعية ، على طريقة « يونغ » ؟ حقيقة ، لا أدري كيف يحصل هذا . .

ـ الملاحظ أن « موسم الهجرة إلى الشمال » كانت هي التألّق الكبير في حياتك الابداعية . الكثيرون حين قرأوا « مريود » مثلاً قالوا عنها انها أقلّ ابداعاً من « موسم الهجرة . . . » . فهل ترى أن هذه الرواية جاءت شيئاً طبيعياً في سياق تطورك الفني ، أم أنها فعلاً كانت إلتماعة ، كما حصل في حياة عديد من الكتاب والمبدعين المعروفين في العالم ، والذين غالباً ما يُعرفون بعمل واحد من بين جميع أعمالهم ؟ فهل تُحسّ انك فعلاً أبدعت عملاً كبيراً ، ولم تستطع تخطيه في ما كتبته من بعد ؟

ـ ولكن هذا شيء على كل كاتب أن يقبله . .

أنا ، طبعاً ، لا أقبل الرأي الذي يرى أن ما كتبته فيما بعد ، على علاّته ، أقلّ أهمية من « موسم الهجرة إلى الشمال » . هذه الرواية ، كما تبدو لي ، فيها ، أولا ، عناصر الاثارة . . وهي ليست عملاً طويلاً جداً ، إنما هو مختصر ومركز . ثم انها جاءت في فترة معينة من تاريخ الأمة العربية . . . فقد نشرت العام ١٩٦٦ ، واكتسبت شهرتها بعد العام ١٩٦٧ . . بعد الهزيمة العربية . . وبعد المشاكل التي عاشتها الأمة العربية .

الذي لاحظته عندما كنت في بيروت مؤخراً (نيسان ١٩٨٠) أن الشباب هناك بدأوا لتوّهم يتذوقون هذه الرواية ، لأنهم بدأوا يدخلون في عالم من الصراعات . . عالم مهزوم . كان الاحساس السائد في لبنان هو أن كل شيء على ما يرام . أما الآن فإن الأمر قد تغيّر . وهكذا بدأوا يتحسسون هذه الرواية ، لأنها أصبحت تعني شيئاً بالنسبة لهم .

هذا كلّه يسعدني جداً ككاتب . لكن من العام ١٩٦٧ حتى الآن كم سنة مرّت ؟ ثلاث عشرة سنة . لا بدّ أن للانسان شيئاً آخر يقوله . وأنا أعتقد أن « بندر شاه » ـ وهو عمل لم يكتمل بعد ـ فيه أشياء جديرة بالاهتمام .

النقاد العرب ـ وهم على الرأس والعين ، وليس لديَّ سبب يجعلني أشكو منهم لأنهم كانوا لطفاء معي على وجه العموم ـ هم أناس كسالى في أحيان كثيرة ، لا يتعبون أنفسهم . إنهم يعترضون مثلاً على وجود اللهجة السودانية في هذه الرواية ، وهم لا يريدون أن يتعبوا أنفسهم في قراءتها . ليست هناك عامية تقف بيني وبين فهم أي عمل ابداعي عربي .

وقد تجد من يقول لك : لماذا تركت الأسلوب الذي اتبعته في « موسم الهجرة إلى الشمال » ؟

إنّ هذه ليست القضية التي على الناقد أن يصرف وقته وجهده لها . المفروض بالناقد أن يكون جسراً بين الكاتب والقارىء ، فيحاول أن يشرحه . . يفسّره ، ويقدم العمل ليساعد على فهمه عموماً . .

ـ من جانب آخر ، هل يضايقك هذا ؟

ـ انه لا يضايقني بمعنى الغضب .

ـ هل كانت المؤثرات الاجتماعية أكبر أم المؤثرات الثقافية في انعكاسها في عملك الابداعي ؟

ـ لم أفكر بعمق في هذه القضية . . لكنني أفكر الآن بصوت مسموع : في البداية ربما كانت المؤثرات الثقافية . وبمرور الزمن تصبح المؤثرات الاجتماعية والبيئية هي الأهم .

(بغـداد)

عن دار الآفاق الجديدة صدر حديثاً

ـ أصول الدين — عبد القاهر البغدادي — ٢٠ ل.ل

ـ مجموع أشعار العرب ١ — الأصمعيات — ١٥ ل.ل

ـ ابن عصفور والتصريف — د. فخر الدين قباوة — ١٥ ل.ل

ـ تدوين القرآن الكريم — د. محمد قبيسي — ١٥ ل.ل

الوثيقة الاولى في الاسلام

يتناول هذا الكتاب مرحلة تدوين القرآن الكريم ، منذ نزول آياته حتى اتمام رسالة النبي ، وكيفية هذا التدوين والادوات التي استعملت في ذلك . كتاب توثيق لا غنى عنه في المكتبة العربية .

ـ كما صدرت الطبعة الرابعة من كتاب « **دليل المرأة الطبي** » في مئة سؤال وجواب ، وهو الكتاب الذي راج رواجاً رائعاً نظراً لاهميته بالنسبة للمرأة في المجتمع ، وما يتناوله من علاجات وايضاحات في عالم المرأة مع صور تشريحية .

٣٠٤ صفحات قياس ١٧×٢٤ — ١٥ ل.ل

شارع المقدسي ـ رأس بيروت ـ بناية حنا تلفون ٣٤٩١٧٨ ـ ٣٤٩١٧٩ ـ ص.ب ٧٣٠٢ برقياً: دافاقهد بيروت، لبنان تلكس: درافاق ٢٢٣٩٣ LE